

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ
هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكُمْ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ
الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ
مَرِيجٍ ﴿٥﴾

وَالْقُرْآنِ: قسم جوابه لتبعثن.

رَجْعٌ بَعِيدٌ: رجوع إلى الحياة غير ممكن.

أَمْرٍ مَرِيجٍ: مختلط مضطرب.

إن تاريخ الأنبياء والمرسلين يشهد بأن الأمم المعاصرة لهم قلما تستعد للإيمان بهم وتلقي دعوتهم بالقبول، ولكن الناس في العصور اللاحقة لا يلبشون أن يعترفوا لهم بالنبوة والرسالة دون إباءٍ أو عناد كثير. وسر ذلك أن النبي يبدو لمعاصريه "شخصاً مساوياً" لهم، ومن هنا قد يكون من دواعي العجب والدهشة لدى القوم أن يتحول هذا الشخص الذي كانوا يعدونه مساوياً لأنفسهم - فجأةً إلى كبير يعظهم وينصح لهم!! وأما في الأزمان التالية، فإن النبي يكون قد اقترن باسمه تاريخ الأجداد والبطولات، مما يجعله يترأى لمن يأتون بعده "شخصاً متفوقاً" عليهم؛ ولهذا السبب لا يصعب على الناس أن يعترفوا برسالة النبي في القرون المتأخرة....، إن النبي يكون بالنسبة إلى أفراد الجيل المعاصر له شخصية خلافية (متنازعة فيها) وبالنسبة إلى الأجيال التالية شخصية مسلماً بها، وإذ يتعين على الجيل الأول أن يقطع رحلة شعورية لكي

يملاً الفراغ الحائل بينه وبين النبي، فإن هذا الفراغ يكون قد ملاه التاريخ نفسه في القرون المتأخرة .

والذين يشكّون في نبوة النبي، يصير كل ما يدعو إليه في أعينهم موضع الشك والارتياب، حتى العقيدة التي تكون معروفة لديهم على وجه التقليد، غير أن هذا الشيء لن يصلح عذراً للناس في تكذيبهم لدعوة النبي، وسيجد المنكرون للنبي أنفسهم مضطرين إلى الإيمان به رسولاً من الله، لو أنهم تدبروا ما يتميز به كتابه من عظمة لا تداني !.

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝^(١) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝^(٢) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝^(٣) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝^(٤) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝^(٥) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝^(٦) ﴾

فُرُوجٌ: فتوق وشقوق.

وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا: بسطانها للاستقرار عليها.

رَوَاسِيَ: جبلاً ثوابت تمنعها الميذان.

زَوْجٍ بَهِيجٍ: صنف حسن نضر.

عَبْدٍ مُنِيبٍ: راجع إلينا مدعن بقدرتنا.

وَحَبَّ الْحَصِيدِ: حب الزرع الذي يحصد.

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ: طوالا، أو حوامل.

هَآ طَلْعٌ: هو ثمرها ما دام في وعائه.

نَضِيدٌ: متراكم بعضه فوق بعض.

كَذَلِكَ الْخُرُوجُ: من القبور أحياء عند البعث.

إن هذا الكون، بما ينطوي عليه من روح وحكمة، وما يوجد فيه من روائع الخلق والإبداع، وكونه خالياً من كل نقصٍ أو خللٍ، وتلاؤمه مع الحاجات الإنسانية تمام التلاؤم.. إلخ، ليرغم كل ذي لبٍ على التأمل والتفكير، والذي يتأمل في النظام الكوني بجدية وإمعانٍ، سيدرك الخالق عبر مخلوقاته، وسيرى انعكاس الآخرة في مشاهد الدنيا، فإن عالم الآخرة ليس سوى صورة أخرى لازمة لعالمنا الراهن!!.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٠﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١١﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٢﴾ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٣﴾﴾

وَأَصْحَابُ الرَّسِّ: البئر، رسوا نبيهم فيها فأهلكوا.

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ: سكان الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر (قوم شعيب).

وَقَوْمُ تُبَّعٍ: أبو كرب الحميري (ملك اليمن).

أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ: أفعجزنا عنه - كلا.

فِي لَبْسٍ: خلط وشبهة وشك.

لقد حدث مرة بعد أخرى، حسب التصوير القرآني للتاريخ، أن تعرضت الأمم والشعوب للهلاك والدمار لقاء إنكارها للأنبياء والمرسلين، وقد أشير هنا إلى بعض تلك الشعوب المهلكة على سبيل المثال دون الحصر، وإن إهلاك الأمم إنما هو في الأصل

جزء من الآخرة، حيث يتم من خلاله إظهار حظ يسير من العذاب الذي سوف يلقاه منكرو الحق هناك في حياتهم الراهنة ذاتها ليكون عبرة لمن يعتبر! إن عملية الخلق الأولى لهذا العالم تبرهن على إمكان الخلق الثاني، ولو كان المرء جاداً حق الجدية لم يعد بحاجة ما إلى دليل آخر بعد ذلك حتى يؤمن بالآخرة !!

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٢﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٣﴾﴾

حَبْلِ الْوَرِيدِ: عرق كبير في العنق.

يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ: يحفظ ويكتب الملكان.

قَعِيدٌ: ملك قاعد.

رَقِيبٌ عَتِيدٌ: ملك حافظ لأقواله معد حاضر.

لقد أثبتت الدراسات العلمية أن هناك نظام "تسجيل" متناهيًا في الدقة والإحكام، يوجد في هذا الكون، فتفكير الإنسان يرتسم على شاشته الذهنية بصفة دائمة، وكل ما ينطق به الإنسان من الكلمات يبقى بشكل موجات هوائية في "الأثير" إلى الأبد، وجميع أعمال الإنسان، القلبية منها واللسانية والعضوية، كلها تسجل عبر الموجات الحرارية بحيث يمكن إعادتها في أي وقت، وكل ذلك من الحقائق المعروفة لدى إنسان اليوم، وهذه الحقائق المعروفة تقرب إلى أفهامنا خبر القرآن هذا بأن نية الإنسان وكلامه وعمله يحيط بها الخالق علماً، لا يخفى عليه شيء من ذلك صغيراً كان أو كبيراً، وأن كل ما يقترفه الإنسان يتم تسجيله على الفور في سجل الملائكة بدقة فائقة !

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٠ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝١١ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَاقِبٌ وَشَهِيدٌ ۝١٢ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكْشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝١٣ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ۝١٤ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝١٦ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝١٧ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝١٨ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝١٩ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٠ ﴾

سَكْرَةُ الْمَوْتِ: شدته وغمرته الذاهبة بالعقل.

تَحِيدُ: تميل عنه وتفر منه وتهرب.

غِطَاءَكَ: حجاب غفلتك عن الآخرة.

حَدِيدٌ: نافذ قوي.

عَتِيدٌ: معد حاضر مهياً للعرض.

عَنِيدٌ: شديد العناد والمجافاة للحق.

مُرِيبٌ: شاك في الله وفي دينه.

مَا أَطْغَيْتُهُ: ما قهرته على الطغيان والغواية.

في هذه الآيات تصوير لغمرة الموت، يتبعه عرض لبعض مشاهد القيامة وأهوالها ، ومن خلال ذلك يتضح لنا ماذا سيجري هناك على أولئك الذين كانوا قد طغوا وبغوا في عالم الامتحان الراهن لكونهم يتمتعون فيه بالاختيار وحرية التصرف ، وإن هذا التصوير فظيع رهيب لدرجة أنه يكفي ليقض مضجع الإنسان الحي ويملاً قلبه بالقلق

والتوجس والاضطراب !!

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٢٦) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ
لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٢٨﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ
بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٢٩﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٠﴾ لَهُمْ مَا
يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣١﴾

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ: قربت وأدنت.

أَوَّابٍ: رجع إلى الله بالتوبة.

حَفِيفٍ: لما استودعه الله من خلقه.

بِقَلْبٍ مُنِيبٍ: مخلص مقبل على طاعة الله.

مَنْ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ جَنَانَ اللَّهِ الْأَبَدِيَّةِ ؟، إنهم أناس ظلوا طيلة حياتهم الدنيا خائفين
وجلين من عذاب الله ، والذين قد استشعروا الخوف قبل رؤية العذاب، أولئك
وحدهم سيكونون آمنين من كل أنواع الخوف والحزن يوم يصبح الخوف ماثلاً أمام
الناس يرونه رأي العين . إن خشية الله تولد في نفس المرء صفات أهل الجنة، بينما يولد
انعدام الخشية الإلهية صفات أهل النار!!

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٣٢)
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٣﴾

وَكَمْ أَهْلَكْنَا: كثيراً أهلكتنا.

قَرْنٍ: أمة.

بَطْشًا: قوة أو أخذاً شديداً في كل شيء .

فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ: طوفوا في الأرض .

مَحِيصٍ: مهرب ومفر من الله .

إن الشعوب تنهض وتأخذ بأسباب الرقي والتقدم حتى تبلغ قمة المجد والازدهار، ولكنها حين تتعرض للبطش الإلهي، نتيجة سوء أعمالها، لا تكاد تجد في جنبات الأرض من مهرب أو ملجأ تأوي إليه !.

ووقائع التاريخ هذه تنطوي على عبر ودروس عظيمة ، غير أن الاعتبار لن يوفق إليه إلا شخص يتوافر لديه استعداد للتفكير ، يمكنه من أن يتلقى بنفسه ما تحمله الأحداث والوقائع من إحياءات ورسائل صامته ، أو تكون عنده حاسة للسمع واعية بحيث إذا ذكر له شيء من ذلك وصل إلى أعماق نفسه بدون عائق !

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾
 ﴿ فَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾
 ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ ﴾

إن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أو بلفظ آخر في ستة أدوار، يوحي بأن منهج الله هو منهج العمل التدريجي ، وإذا كان الله رغم تمتعه بكل القوى والطاقات، يُظهر الأحداث والوقائع على التدريج خلال حقبة الزمن، فينبغي لنا نحن البشر - كذلك - أن نتجنب التسرع والاستعجال، ونحاول تحصيل النتائج المطلوبة عن طرق الجهد الصبور الدائب.

وعملية الدعوة عملية صبرٍ من بدايتها حتى النهاية ، حيث إنها تفرض أن يتحمل الداعي كل ما يواجهه من قبل الآخرين من الأذى والتجارب المريعة برحابة صدر،

وأن يواصل نشاطه على طول الطريق، وهذا العمل بما فيه من جهد ومشقة، وما يتطلب من تصبير دائم للنفس، لن يقوى على القيام به والاستمرار فيه إلا الذي يقضي ليله ونهاره مشغولاً بالذكر والعبادة، والذي يتلقى من ربه ما لا يجده من البشر، والذي لا يتمكن منه الشعور بالخيبة والحرمان أبداً حتى لو فقد كل شيء !!

وقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ (١٤٠) تعبير ضماني يتناول بالتصحيح ما ورد في التوراة الحالية المحرفة من أن الله قد أكمل خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استراح بعد ذلك في اليوم السابع ! (انظر سفر التكوين : الإصحاحين الأول والثاني) ، إنما يستريح مَنْ يشعر بالتعب ، وبما أن الله - سبحانه وتعالى - لا يمسه شيء من التعب أو اللغوب أو الإرهاق ، لا يحتاج إلى الاستراحة أو الاستجمام البتة !

﴿ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (١٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿١٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿١٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿١٤٤﴾

يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ: نفخة البعث.

تَشَقَّقُ الْأَرْضُ: تنفلق وتتصدع.

سِرَاعًا: مسرعين إلى الداعي.

ليس لقيام الساعة موعد معين ، وإنما يصدر الله - عز وجل - أمره في أي وقت شاء إلى "إسرافيل" الذي ينفخ في الصور إيداناً بقيامها فجأة !

والغافلون عن الله يرون القيامة أمراً بعيداً وربما يستبعدون وقوعها ، وأما المؤمن الصادق الإيمان فلا يزال في كل لحظة في توجس وحذر وارتقاب : متى يُنفخ في الصور

فيفاجأ بمجيء الساعة الرهيبة؟! وبعد أن ينفخ في الصور سوف تبدل الأرض غير الأرض والسموات، ويحشر الناس كلهم في عالم جديد، حيث ينال الكل جزاءه الأبدي بحسب عمله!.

﴿حَنُّ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ تَخَافُ وَعِيدِ ٢٢﴾
بِجَبَّارٍ: بمسلط تجبرهم على الإيمان.

لقد ورد في القرآن الكريم عن رسول الله - ﷺ - مراراً وتكراراً ما معناه أن عملك الأساسي - أيها الرسول - إنما ينحصر في البلاغ وحده ، وليس المطلوب منك أن تقوم بتغيير الناس بالفعل ، ومن جانب آخر أكد القرآن كذلك - في أكثر من موضعٍ - على أن الله - عز وجل - قد بعث رسوله بدين الحق لكي يظهره على كل الأديان سواه!!